ندوة عُمَان في التاريخ
٢٤ - ٢٧ سبتمبر ١٩٩٤م

إعداد: خولة بورسلي

عقدت في مسقط ندوة «عمان في التاريخ» التي نظمتها وزارة الإعلام العمانية في قاعة المؤتمرات بجامعة السلطان قابوس في إطار فعاليات واحتفالات عام التراث العماني الذي تحتفل به السلطنة هذا العام، واستمرت الندوة أربعة أيام شارك فيها ٨٦ باحثا من المؤرخين وأساتذة الجامعات في مختلف الدول العربية والإسلامية، ناقشوا خمسين بحثا تناولت التاريخ العماني وحضارة العمانيين منذ آلاف السنين وحتى العصر الحديث.

ولقد غطّت البحوث مراحل التاريخ العماني منذ ظهور عمان كيانا جغرافيا — سياسيا قبل الميلاد في فترة موازية لمرحلة حضارات مابين النهرين (السومرية-والاشورية) مرورا بمرحلة نشوء الدولة في مرحلة ما قبل الإسلام، ثم مرحلة ما بعد الاسلام التي شهدت ولادة ثلاث ممالك أو أسر حاكمة رئيسة هي: البناهنة (بني بنهان)، واليعاربة: (بني يَعْرُب)، والبوسعيدية (آل سعيد)، وهي الأسرة التي مازلت مستمرة في حكم عمان في شخص السلطان قابوس بن سعيد الذي يُعَدّ السلطان العاشر ويعود نسبه مباشرة إلى مؤسس الأسرة الإمام أحمد بن سعيد (قابوس بن سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي بن سعيد بن سلطان بن أحمد بن سعيد).

وكانت هذه التغطية الزمنية الشاملة لفترات التاريخ العماني القديم والوسيط والحديث الأولى من نوعها التي تأتي في سياق بحثي وعلمي واحد جسدته الندوة، ومثل بالتالي بداية العلاج لظاهرة سلبية ميّزت الكتابة السابقة عن تاريخ عمان ألا وهي تركيز هذه الكتابة على فترات تاريخية محدودة (هي فترات الخلاف والصراع الداخلية)، وسرد وقائع التاريخ العماني في سياق «أفقي» لتاريخ منطقة الخليج ككل، وليس في إطار بحث تاريخي مفصّل يتعلق بعمان وحدها.

وإضافة إلى شمولية التغطية، تعرضت بحوث الندوة للمرة الأولى تقريبا للجوانب الاجتماعية من التاريخ العماني أو ما يعرف «بالتاريخ الاجتماعي» لذي يصف «القوى المحركة للظواهر السياسية». فلم تكتف بوصف الأحداث والانعطافات والشخصيات السياسية، ولم

تقع في فخ تتبع «المؤامرات الداخلية للحصول على السلطة، أو الخارجية للقضاء على الاستقلال التقليدي لعمان، بل اهتمت بالدور الذي لعبه الموقع الجغرافي لعمان وبخاصة موقعها الفريد على البحر العربي والمحيط الهندي ومدخل الخليج، وتوسطها الطريق بين أوروبا وأفريقيا واستحواذها على سواحل طويلة (١٧٠٠كم) ذات موانى عدّة ومياه سهلة لا تكثر فيها الشعب المرجانية أو العواصف البحرية.

كما أن الجوانب الاقتصادية ودور التجارة قد حظيا (إزدهار الدولة في مراحل عدّة كان بسبب التجارة مع الشرق الأقصى وأفريقيا وبسبب تفوقها في الملاحة البحرية وامتلاكها ثاني أكبر أسطول في المحيط الهندي بعد الأسطول البريطاني)، باهتمام ملحوظ فسّر ظواهر مهمة في السلوك السياسي لحكام عمان أمثال السيد سعيد بن سلطان الذي اتبع سياسة تجارية (السياسة المركنتلية)، وأتقن لعبة التوازن بين القوى الدولية المتصارعة (اتفاقيته التجارية مع فرنسا لموازنة النفوذ البريطاني) وبين القوى الدولية القديمة والقوى الدولية الصاعدة في عصره (اتفاقيته مع الولايات المتحدة هي الأولى بين بلد عربي وواشنطن).

كذلك أبرزت البحوث المقدمة للندوة اهتماما بدور العناصر الثقافية والأيديولوجية ومكونات البناء القومي، إذ تناول بحث الدكتور مصطفى الشكعة على سبيل المثال أثر اعتناق عمان الإسلام على أدائها التاريخي والحضاري، وكون الاسلام إحدى القوى المحركة للدور الذي لعبه الحكام في التجار العمانيون في نشر الاسلام في الهند وآسيا وشرق أفريقيا ووسطها.

وحظي ثلاثة من السلاطين أو السادة البوسيعدين باهتمام خاص في أبحاث الندوة وهم: السيد أحمد بن سعيد مؤسس الأسرة (١٧٤٤-١٨٠٤)، والسيد سعيد بن سلطان مؤسس الامبراطورية التي شملت معظم سواحل شرق أفريقيا (١٨٠٦-١٨٥٦) والسيد تركي بن سعيد بن سلطان (١٨٧١-١٨٨٨) الذي استطاع إعادة الاستقرار إلى البلاد نسبيا بعد فترة من الفتن والصراعات متبعا دبلوماسية خارجية ـ تسخير العناصر الدولية في الحفاظ على حكمه ـ. فقد اكتسب الامام أحمد بن سعيد شرعيته التاريخية والسياسية من دوره المحوري في «طرد الفرس من عمان» منتصف القرن الثامن عشر. واكتسب السيد سعيد بن سلطان هذه الشرعية من إنشائه للإمبراطورية العمانية، ولنموذج «التحديث والعصرية» الذي حاول إقامته في بلاده في النظام السياسي والإداري، والأسطول البحري الذي كان متشابها في ذلك الوقت مع النموذج المشهور في عصره وهو نموذج محمد علي باشا حاكم مصر وصاحب أكبر تجربة عربية للتحديث في القرن التاسع عشر. كما اكتسب تركي - وهو السادس في ترتيب الأسرة البوسعيدية- أهميته من قدرته على شنّ حملة ناجحة للحصول على الحكم، واعتماده دبلوماسيا مميزا في الوساطة واستخدام

المساعدات الخارجية الأجنبية وإعادة تنظيم المناطق العمانية.

أما الفترة المعاصرة من تاريخ عمان الحديث فتتمثل في حكم السلطان قابوس بن سعيد التي بدأت في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٧٠، وتعرّضت لها ثلاثة أبحاث هي «عمان المعاصرة»، والوحدة الوطنية في عهد السلطان قابوس» و«التنظيم الإداري للدولة البوسعيدية». وكان أهمها البحث الثاني الذي أظهر التحديات الخطيرة التي واجهت عملية تحقيق الوحدة الوطنية العمانية بالمعنى السياسي الإقليمي، أو التماسك الداخلي في مستهل حكم السلطان قابوس بما في ذلك التمرد اليساري في الجنوب الذي تم إخماده العام١٩٧٥.

وتحدث د. محمد علي الداود في بحث شيق بعنوان: تطور الملاحة والتجارة العمانية في الخليج العربي والمحيط الهندي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. حيث قال إن للموقع الجغرافي لعمان أثره المباشر في تحديد ملامح التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للسلطنة التي تطل على الخليج العربي وبحر العرب بمسافة ألف وسبعمائة كيلو متر، وأثر هذا الموقع الجغرافي المتميز في طبيعة العلاقات الدولية للحكومة العمانية المتعاقبة في درجة ارتباط المجتمع العماني بالمحيط الهندي، ويرجع الفضل في تطور العلاقات العربية مع الموانى الآسيوية والأفريقية في العصور الاسلامية والحديثة إلى أولئك الرواد الأفذاذ من الملاحين والتجار العمانيين، الذين ساهموا مع إخوانهم العرب الخليجيين في اكتشاف العديد من الأصقاع البعدية وتمكنوا بقدرة فائقة من تطوير الملاحة وتقدم التجارة. هذا بالإضافة إلى نجاحهم المنقطع النظير في نقل المبادىء الاسلامية وأسس الحضارة الاسلامية إلى أبعد نقطة في آسيا وأفريقيا.

إن مئات الملايين من المسلمين الذين يشكلون اليوم سكان اندونيسيا وماليزيا والهند الصينية وسواحل الهند وحوض السند وجزر المالديف وسيلان والأقطار الأفريقية التي تمتد من الصومال في الشمال إلى زنجبار في الجنوب، ينحدرون من أجيال أسلمت على أيدي أولئك الرواد من تجار عمان والخليج العربي. ولاتزال الكثير من الأسر الآسيوية والأفريقية تفتخر بأصولها العربية. هذا إلى جانب اعتزازها بالحضارة الاسلامية التي كان دور العمانيين في انتشار معالمها وخصائصها دورًا مرموقا.

وفي العصور الحديثة شمل النفوذ العماني جميع أرجاء الخليج العربي بما في شواطئه الشرقية، وظلت بندر عباس ضمن النفوذ العماني حتى وفاة السيد سعيد بن قابوس بن سلطان «سلطان عمان عام ١٨٥٦»، بينما ظل ميناء جوادر على ساحل بحر العرب اقليميا تابعا حتى عام ١٩٥٨ عندما تنازلت عنه عمان لدولة باكستان الاسلامية الحديثة.

وفي التاريخ الحديث تطور مركز عمان الدولي في عهد أسرة البوسعيد التي أسسها عام ١٧٤٤

الإمـام أحمد بن سعيد «والي صحـار» الـذي دخل حروب بحـريـة عـديدة مع مختلف الأطـراف الفارسية، ودافع عن البصرة بقوة بحرية قدرت من قبل المؤرخ العماني حميد بن رزيق بعشرة آلاف مقاتل تحملهم عشرات السفن بما فيها سفينة القيادة الخاصة بالإمام أحمد المسماة «الرحماني».

ورغم الانقسـامات والحروب الداخليـة التي شهدتها عمان في أيـام حكم السيد سلطـان بن أحمد الـذي تولى الحكم عـام ١٧٨٣ إلا أن القـوة البحريـة العمانية شهـدت تطـورا ملموسـا في عهده، واتسـع الأسطول الحربي والتجـاري في عهد ولده السيـد سعيد بـن سلطان الـذي امتدّ عهده أكثر مـن نصف قرن (١٨٠٤-١٨٥٦) كما اتسم بتصـاعد مـركز عمان في المجـال الدولي والانتشار الواسع للنفوذ العُماني في جميع السواحل المطلة على الخليج العربي والمحيط الهندي.

ويعتبر المؤرخون بحق عهـد السيد سعيـد بن سلطان أنـه الفترة الذهبيـة في التاريخ العماني الحديث لاعتبارات عدّة، منها:

١- اتساع نفـوذ دولة عمان بشكل لم تشهـده من قبل بحيث أصبحت جميع المناطق الـواقعة بين بنـدر عباس على السـاحل الشرقي للخليج العـربي إلى مينـاء زنجبار على السـاحل الشرقي لأفريقيا تحت نفـوذ عمان. هذا بالاضافـة إلى جزر العرب والمحيط الهندي بما فيهـا أرخبيل جزر القمر، كانت تحت النفوذ العماني.

٢- المركز المرموق الذي احتله السلطان سعيد بن سلطان في المجال الدولي، والاحترام الذي كان يتميز بـه بين حكام أوروبا وآسيا وأفريقيـا والولايات المتحدة في ذلك العصر، بـالأضافة إلى شعبيته الواسعة بين أفراد وطنه.

٣- استقـرار الحكم العماني رغم المطـامع والمؤامـرات الأجنبيـة. وفي ذلك الـوقت كـانت الصراعات العربيـة — العربية مستمرة على سواحل الخليج العربي، وفي الـوقت الذي شهدت فيه الجزيرة العربية حروبا دائمة بين محمد علي بـاشا والحركة السلفية، وما كان يتعرض له السيد سعيد بن سلطـان من تصادم المطامع البريطانيـة والفرنسية والفارسية، فإن السيـد سعيد عمل على المحافظة على استقلال بـلاده بتوازن دقيق مستخدما الدبلوماسية أكثـر من القوة العسكرية من أجل الوصـول إلى أهدافـه. فقد اقتضت الظـروف التوقيع على اتفاقيـات تجارية مع فـرنسا والـولايات المتحـدة وهولنـدا والبرتغـال، وكانت سيـاسـات السيد سعيـد المستندة إلى البراعـة الـدبلومـاسية والمبـادىء الواقعيـة قـد جعلت عمان من أكبر الدول العـربية وأكثـرها نفـوذاً على الإطلاق طوال فترة حكمه.

٤- قوة الاقتصاد العماني المستندة إلى تقدم التجارة العمانية وتصورها والتي كانت تعتمد هي الأخرى على أسطول ضخم تسانده قوة بحرية متميزة.

شهد النصف الأول من القرن التاسع عشر اهتمامًا كبيرًا ببناء الأسطول التجاري والحربي في عهد السيد سعيد بن سلطان، وكان الأسطول العماني الحربي والتجاري في الخليج العربي والمحيط الهندي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ثاني أكبر أسطول على الاطلاق ويأتي في المرتبة الثانية بعد الأسطول البريطاني. ولقد كان لذلك الأسطول الضخم قواعد رئيسية على الساحل الشرقي للخليج العربي في موانى بندر عباس وحاسك وشامل وسياب ولنجه وجزر قشم وهرمز ولاراك. وكانت قواعده على الساحل العماني موانى مسقط ومطرح وجزيرة مصيرة. أما على الساحل الأفريقي فكان لعمان قواعد بحرية في ممباسا ولامو وكلوة ووركا ومقديشيو وزنجبار.

وكان السيد سعيد بن سلطان قد أرسل سفينة عمانية في بعثة تجارية إلى نيويورك عام ١٨٤٠، وكانت تلك السفينة «سلطانة» تقل سفيره أحمد بن النعمان الكعبي، وكان أول مبعوث عربي يصل الولايات المتحدة. وقد زارت السفينة نفسها «لندن» عام ١٨٤٢ وكانت تحمل السفير على بن ناصر إلى الملكة «فكتوريا» وتشير الوثائق التاريخية إلى أن السفينة الحربية العمانية «كارولين» المزودة بستة وثلاثين مدفعا قد زارت مرسيليا عام ١٨٤٩ زيارة مجاملة حاملة الكثير من بضائع الشرق، وفي منتصف القرن التاسع عشر كان الأسطول العماني التجاري المسلح يتكون مما لا يقل عن مائة سفينة متعددة الحمولة، وكانت مزودة بمدافع تتراوح تعداد كل منها من عشرة مدافع إلى أربعة وسبعين مدفعا، هذا بالإضافة إلى مئات المراكز التجارية الصغيرة.

ومن الجدير بالذكر أن السيد سعيد بن سلطان قضى أيامه الأخيرة يجوب المحيط الهندي على ظهر السفينة (فكتوريا) عائدا من مسقط، وقد توفى عام ١٨٥٦ على ظهرها وكانت بالقرب من جزيرة سيشل.

ولابد أن تتوارد الكثير من الأسئلة عن سر عظمة الاسطول العماني إبان عصر السيد سعيد، وهذا يأتي في ضوء التطور الكبير الذي تحقق إبان عهده في حقل العلوم الملاحية وكانت معظم هذه العلوم عمانية عربية أصلاً. فقد مخر الملاحون العمانيون المحيط الهندي منذ قرون قديمة واكتشفوا معظم السواحل الآسيوية والأفريقية قبل البرتغاليين والهولنديين والانجليز والفرنسيين والألمان، وقد ألّف أساتذة العلوم البحرية العمانية العديد من الكتب في علوم الملاحة وحقوقها، وقد ظلت مؤلفات العالم العربي الكبير «أحمد بن ماجد» دليل عمل لكل من اشتغل في قيادة السفن. وأشهر مؤلفاته القيمة «الفوائد في أصول البحر والقواعد».

وفي مالندي على ساحل أفريقيا قابل المستكشف البرتغالي فاسكو دي جاما عام ١٤٩٨ المعلم أحمد بن ماجد، واستمع باهتمام بالغ إلى شروحاته حول الملاحة في المحيط الهندي. وقد

رجـاه فـاسكو دي جـامـا أن يقـوده في أول رحلة أوروبيـة إلى الشرق التي غيرت مجرى التـاريخ وفتحت مهدًا جديدًا من العلاقات الأوروبية مع الشرق.

إن القيادة الفـذة للسلطان سعيـد بن سلطان قـد جعلت من عمان إحـدى القوى الـدولية الرئيسة في منطقة الخليج العـربي والمحيط الهندي، وقد كرمه زعماء العالم يـومئذ. وعقد أكثر من عشرين معـاهدة واتفاقيـة مع دول العالم المهمـة، وفتح عـلاقات دبلومـاسية وتجاريـة مع جميع القـوى الـدوليـة والمحلية الـرئيسـة في النصف الأول من القـرن التـاسع عشر. وفي عـام ١٨٣٧ انتخبته الجمعية الملكية الآسيوية في لندن عضو شرف فيها لمساهمته في تقدم العلوم البحرية وبناء السفن والملاحة ودوره في تطـور التجارة وإشاعـة السلم والاستقرار على سـواحل الخليج العربي والمحيط الهندي، واعتبر أشهر حاكم عربي في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

اختتمت ندوة عمان في التاريخ بكلمة السيد فيصل آل سعيد وزير التراث القومي والثقافة، الذي أكد فيها أهمية عقد مثل هذه الندوات التي تأتي بمهمة جليلة هي تحري الحقيقية المجردة، وتحقيق الوقائع التـاريخية في المخطوطات وكتب التراث، وتمكين الشخصية العمانيـة والعربية من الاحتفاظ بأصالتها وخصوصيتها المتميزة ودورها في بناء المجتمع العربي.